ركيزة المعتزلة :

علم الله في مذهب المعتزلة

للدكتور البير نصري نادر

إن نفي المعتزلة لصفات الله لم يمنعها من البحث في بعض الصفات كصفة العلم والقدرة والإرادة والعدل على زعم أنها اعتبارات ذهنية وملاءمة لنا حسب قول أبي الهذيل العلاف الذي يقول : إذا تحدثنا عن علم الله أو عن قدرته مثلا فذلك لأننا ننظر إليه تعالى من أوجه مختلفة في حين أنه تعالى ذات واحدة وأزلية[1] ونحن مخلوقات مركبة وحادثة ؛ لذلك نلجأ إلى هذه الاعتبارات وخصوصاً إننا عاجزون عن إدراك اللامتناهي .

ويزيد إبراهيم النظام قائلاً : معنى قولنا إن الله عالم إثبات ذاته ونفي الجهل عنه . ومعنى قولنا قادر إثبات ذاته ونفي العجز عنه . ومعنى قولنا حي إثبات ذاته ونفي الموت عنه . وكذلك الأمر في سائر صفات الذات[2] . فهكذا لا توجد سوى ذات واحدة أزلية ننظر نحن إليها نظرة تجزئية في حين أن هذه الأجزاء أعني الصفات غير موجودة البتة فيها ؛ فقط طبيعة عقلنا الناقصة العاجزة تلجئنا إليها . وأول هذه الصفات التي يبحثها المعتزلة هي صفة العلم .

علم الله هو الله :

لما نفى واصل بن عطاء كل صفة عن الله تعالى رد جميع الصفات إلى ذات واحدة . وزاد أبو الهذيل توكيداً في رد هذه الصفات إلى الذات قائلا : إن علم الله هو (أي الله) وإن الله يعلم نفسه وإن نفسه ليست بذي غاية ولا نهاية[1] فإذاً علم الله لا متناهي كما أن الذات لا متناهية . ويضيف أبو الهذيل قائلا إن الله يعلم حقيقة ، ليس بعلم أزلي (قديم) مميز عن ذاته كقول النابتة ، وليس بعلم مكتسب محدث كقول الرافضة ، بل إنه عالم بذاته[2] . حتى إن أبا الهذيل والنظام كانا يقولان : معنى قولنا عالم هو إثبات ذاته ونفي الجهل عنه . فالذات هي العلم والعلم هو الذات لا يمكن فصلهما وكذلك الحال في الصفات الأخرى .

ويذهب معمر[3] وهو من أعظم المعتزلة مرتبة في تدقيق

(١) مقالات الإسلاميين للاشعري ص ٤٨٦ — كتاب الانتصار للخياط ص ٧٥

(٢) مقالات الاسلاميين للاشعري ص ١٦٦ و ص ٤٨٦ .

(١) الانتصار للخياط ص ٨ ؛ ٧٥ ؛ ٨-١ ؛ ١٢٢ — مقالات الاسلاميين للاشعري ص ١٦٥ ؛ ٤٨٤ .

(٢) الشهرستاني : الملل والنحل على هامش ابن حزم ج ١ ص ٥٧ .

(٣) معمر بن عباد السلمي من موالي بني سالم توفي سنة ٢٢٩ كان معاصراً لأبي الهذيل والنظام . أخذ الاعتزال عن عثمان الطويل صاحب واصل ابن عطاء رأس المعتزلة . ومعمر أستاذ بشر بن المعتمر رأس معتزلة بغداد .

وهكذا نجح الإنجليز في صبغ تدخلهم بالصبغة الشرعية تلك الصبغة التي أخذت تزداد كلما توالت المنشورات وهي لا تنفأ تردد عصيان عرابي وتوعده هو ومن ينحاز إليه بالعقاب . وحين فتح الإنجليز الجبهة الشرقية كان الخديو في الوقت الذي يتوعد فيه عرابي يرسل كتب التهنئة إلى أركان حرب الجيش الإنجليزي بما يحرزون من انتصارات ! وهكذا سكن موقف الدولة العثمانية وموقف الخديو قائد الجيش الإنجليزي من أن يعلن المصريين بأن جيشهم إنما هو تجريدة عسكرية إلى القطر المصري ليست إلا لتأييد سلطة الحضرة الخديوية ؛ وأن قائد الجيوش يُسرُّ جداً من زيارة مشايخ البلاد وغيرهم من الذين يودون المساعدة لردع العصيان الذي هو ضد الحضرة الخديوية الحاكم والوالي الشرعي على القطر المصري المعين من لدن الذات الشاهانية .

وقد كان محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب نائباً عن الخديو في مرافقة الجنرال ولسلي في زحفه على العاصمة ، بل لقد كان الخديو قد أعطى للإنجليز ترخيصاً باحتلال القناة .

وجاءت الدولة العثمانية فأعلنت عصيان عرابي والحرب قائمة ونشر ذلك الإعلان في جريدة (الجوائب) التي كانت تصدر باللغة العربية بالآستانة ، وقام سلطان باشا بتوزيع نسخ تلك الجريدة بين الأهالي والأعيان بل وبين كبار الضباط .

حقاً لقد كانت الدولة العثمانية بتصرفاتها طابوراً خامساً طعن الحركة العرابية طعنة نجلاء ومهد لرسوخ قدم الاحتلال .

ولكن مهلاً أيها القارئ العزيز حتى نستعرض الرأي الثالث والأخير .

(البقية في العدد القادم)

كمال البير ورويسه

القول بنفي الصفات إلى القول بأن الله تعالى محال أن يعلم نفسه لأن من شرط المعلوم عنده أن يكون غير العالم به ، وهكذا يكون العالم متميزاً عن المعلوم . ولكن معمر رد هذا التمييز بينهما خوفا من أن يؤدي بنا إلى الاعتقاد بأن علم الله مميز حقيقة عن ذاته فرفض القول بأن الله يعلم نفسه وقال بأن العالم والمعلوم واحد أي أن علم الله هو ذاته (أي ذات الله) وعلى ذلك لا يكون العلم منفصلا في الله ولكنه دائماً فيه قديم وغير مميز عن ذاته[1] .

لذلك قال جمهور المعتزلة : إطلاق العلم لله عز وجل إنما هو مجاز لا حقيقة ، وإنما معناه أنه تعالى لا يجهل[2] فتكون المعادلة خالصة كاملة تامة بين ماهية الله وعلمه ، كما أن هذه المعادلة كاملة أيضاً بين الماهية وأي صفة من الصفات الأخرى والتي هي في نظر المعتزلة اعتبارات ذهنية ليس إلا —

مصدر فكرة الفكرة :

يقول أرسطو في مقاله الثانية عشرة من كتاب ما بعد الطبيعة أن الله علمٌ كله ؛ قدرةٌ كله ؛ حياةٌ كله ؛ سمعٌ كله ؛ بصر كله . وقرأ أبو الهذيل والنظام في بغداد ترجمة مؤلفات أرسطو وأفلاطون فيكون أبو الهذيل قد أخذ هذا القول من أرسطو على حسب ما جاء في مقالات الإسلاميين للاشعري[3] وحسّن أبو الهذيل اللفظ من عند نفسه وقال : علمه هو هو ، وقدرته هي هو — ويؤكد الشهرستاني ذلك بقوله إنما أبو الهذيل اقتبس هذا الرأي من الفلاسفة الذين اعتقدوا أن ذاته واحدة لا كثرة فيها بوجه ، وإنما الصفات ليست وراء الذات معاني قائمة بذاته بل هي ذاته[4] . والمعروف أن هذا هو قول أرسطو .

وهناك سبب آخر جعل أبا الهذيل أولا ثم المعتزلة ثانياً يردون الصفات إلى الذات . يقول أبو الهذيل : هناك فرق بين قول القائل إن الله عالم بذاته لا بعلم ، وبين قول القائل إن الله عالم بعلم هو ذاته ، وهو أن القول الأول نفي الصفة والثاني إثبات ذات هو بعينه صفة أو إثبات صفة هي بعينها ذات ؛ وإنما أثبت أبو الهذيل هذه الصفات (العلم والقدرة والحياة والعدل) وجوهاً للذات فهي بعينها أقانيم النصاري — لذلك نفى القول الثاني القائل بأن الله عالم بعلم هو ذاته حتى يرد الأقانيم عند النصارى .

قرص علم الله :

لما كان علم الله هو الله ، ولما كانت ذاته تعالى تتصف بالقدم ، فإنه علمه قديم أيضاً . وهذه نقطة في غاية الأهمية عند المعتزلة . ولا ينفك أبو الهذيل والنظام يرددان القول بقدم العلم[1] ويقول هشام الفوطي[2] إن الله لم يزل عالماً لنفسه لا بعلم سواء قديم ولا بعلم محدث وإن الله لم يزل عالماً بأنه سيخلق الدنيا ثم يفنيها ثم يعيد أهلها (فريق في الجنة وفريق في السعير)[3] .

تضيف المعتزلة على قولها إن الله لم يزل عالماً بنفسه قولها بأنه تعالى عالم لذاته أزلا بما سيكون (والمستقبل لا يوجد إلا بالنسبة لنا وليس له وجود عند الله) . وهناك فارق كبير بين علم الله وعلم الإنسان : فعلمنا بما سيكون هو علم بشيء جائز ، على عكس علمنا بما يكون فإنه علم بشيء متحقق واقعي . ولكن علم الله هو علم بشيء حقيق لا بشيء جائز ، لأن الجائز يمكن أن لا يتحقق وعلم الله لا يتعلق به[4] .

اعتراضه على هذا القول : اعتراض هشام بن الحكم :

بما أن الله لم يزل عالماً بالأشياء حتى قبل وجودها ولم يزل قادراً عليها فهل ما يعلمه الله وما يقدر عليه قديم أيضاً ؟ هذا سؤال وجهه هشام بن الحكم (الرافضي) إلى المعتزلة قائلا لهم : إن كان الله عالماً بدقائق الأمور وجلائلها لنفسه فهو لم يزل يعلم أن الجسم متحرك لنفسه لأنه الآن عالم لذلك وما علمه الآن فهو لم يزل عالماً به . فإن كان هذا هكذا فلم يزل الجسم متحركا لأنه لا يجوز أن يكون الله لم يزل عالماً بأن الجسم متحرك إلا وفي الوجود جسم متحرك على ما وقع به العلم[5] .

---

(١) البغدادي : الفرق بين الفرق ص ١٤١ — الشهرستاني : الملل على هامش ابن حزم ج ١ ص ٧٥ .
(٢) ابن حزم : الفصل ج ٢ ص ٩٩ .
(٣) مقالات الاسلاميين للاشعري ص ٤٨٥ .
(٤) الشهرستاني : الملل ج ١ ص ٥٧ — الأسفرائني : التبصير في الدين ص ٤٢ .

(١) الخياط : الانتصار ص ٨ و ٧٥ و ١٠٨ و ١٢٣ — الأشعري : مقالات الاسلاميين ص ١٦٥ و ٤٨٤ .
(٢) هو هشام بن عمر الفوطي المتوفى سنة ٢١٨ هـ أصله من البصرة دعاه المأمون إلى مجلسه في بغداد وكان هشام من أشد المعتزلة تعصبا
(٣) الخياط : الانتصار ص ٦٠ .
(٤) الشهرستاني : نهاية الأقدام ص ٢٢٠ .
(٥) الخياط : الانتصار ص ١٠٨ .